

اختلاجات في حضرة محمود درويش

سعدى يوسف

السابعة مساء التاسع من آب

مساء التاسع من آب (أغسطس) 2008 ، كنت في برلين، أدخلت مع الشاعرة الإسكتلندية جوان ماكنلي مقهى يرتاده ذوو الحاسوب المحتضن (اللابتوب) .

كانت الساعة حوالي السابعة .

صيف ألماني .

في الرصيف التابع للمقهى زبائن يدخنون سجائرهم .

أنا أنظر عبر الزجاج إلى الرصيف وأهله .

جاءت جوان ماكنلي بكأسي جعة كبيرتين .

ما زلت أنظر إلى الشارع عبر الزجاج . مددت يدي إلى كأس الجعة ، فارتدت .

كنت أحس بإحباط وإنهاك ، وبين لحظةٍ أخرى تعتريني رجفة خفيفة .

لم أكن في المكان .

كان شيء ما يأخذني بعيداً عن المكان، عن جليستي، عن كأس البيرة الألمانية، عن كل شيء .

قلتُ لجوان : أنا أرتجف برداً !
لم نكن في مهبِّ للريح . لكنَّ برداً قادماً من سيبيريا ما كان يدخل إلى المقهى ، لئيرعدني
وحدى .
اقترحْتُ عليَّ أن نصعد إلى الطابق الأول ، اتقاءً بردٍ خاصِّ بي .
حملتُ كأسَي البيرة .
وهناك بين ذوي اللابتوب المنهمكين جلسنا . ثانيةً لم أمدَّ يدي إلى الكأس .
حالة القنوطِ ظَلَّت ملازمةً .
لم يكن القنوط وحده .
كنت ضائعاً ، أتيه بين فلواتِ بلقع ، في قرِّ مؤذٍ . في عالمٍ من أذى صافٍ دائمٍ كالقانون
الطبيعي .
تلك الليلة ، لم أفوَّ على العودة إلى شقَّة ابنتي شيراز في ضواحي العاصمة الألمانية ، فأويتُ
إلى شقَّة جوان لأنام كمدماً !

*

عدتُ في الضحى العاليي إلى ابنتي .
قالت لي إن اسماعيل خليل (المسرحي) اتصل بي منتصف الليل .
هل قال شيئاً ؟
كان يريد أن يخبرك ، برحيل محمود درويش !

*

إذا . . .

في حوالي السابعة من مساء التاسع من آب (أغسطس) كان محمود درويش ، يرحل عنا ،
في مستشفى الأميركي .
هل كنتُ أحاول الاتصال به ، وأنا في المقهى ؟
هل مرقتُ في خطفةٍ أمام عينيه الغائمتين ؟
لقد كنا في باريس ، في السابع من حزيران هذا .
جاء إلى أمسيتي بمسرح الأوديون . لكنه قال لفاروق مردم ألا يخبرني بأنه هناك .
التقينا بعد انتهاء الأمسية .

قال لي : أنا راحلٌ غداً .
هل حملت كلماته هذه ، الأقصىّ كما يمكن أن تحمل ؟
هل كنا نقول : وداعاً ؟

*

قالت لي منى أنيس : كان محمود يودّعك !

لندن 27.08.2008

مساءً في آب 1982 بيروت

الصيف المنكسر ، يستمرّ حتى في المساء .
بيروت محاصرة ، والإسرائيليون على الأبواب .
الظلام يطبق على المدينة كما يطبق الدخان الثقيل . شارع الحمرا يبدو مهجوراً للوهلة الأولى .
إلا أنه محتشد بالأشباح ، أشباحنا ، وأشباح رؤانا ، محتشد بأنفاسنا المختنقة . لا ماء في المدينة .
لا كهرباء . نحن ، السائرين
هائمين في الظلام ، وحدنا ، نخدش حقيقة أن المدينة ميتة وقد غادرها أهلها ، إلى الشمال :
طرابلس والضنيّة ،
أو جنوباً حتى المناطق التي احتلها الإسرائيليون .
الغرباء في المدينة هم السائرون في الظلام ...
نسير في العتمة .
مصايحنا اليدوية ذوات البطاريات الصغيرة ستضيء لنا السلالم أن نعود إلى غرفنا التي تظل
تهتّر حتى في الليل من انفجارات النهار .
مصباح يدوي يتقد فجأة .
أأنت هنا ؟
محمود درويش في ليل الحمرا !

*

وجهاننا في دائرة الضوء الضيقة كنا متسعين .

لندن 29.08.2008

أواسط السبعينيات ببغداد

ربما كان ذلك في النصف الأول من السبعينيات .
كنا ، على ما أتذكر في منزل ناهدة الرّمّاح .
محمود درويش كان في بغداد المفتوحة (على آفاق كاذبة ؟) آنذاك .
زار « طريق الشعب » ، واحتفى بلقاء شيوعيين وشعراء كان عرفهم في أكثر من مكان
ومناسبة .
تلك الليلة امتدت السهرة أكثر من المعتاد .
أغانٍ وموسيقى وأنهارٌ من الرحيق المصفى .
وكان عليّ أن أوصل محمود درويش إلى فندقه بسيارتي الرينو 16 التي كادت تنفجر بعديد
ركابها .

محمود درويش كان إلى جانبي .
ننحدر من جسر الجمهورية .
فجأةً يغيب كل شيء أمامي .
ألثفت لحظةً إلى محمود درويش لأسأله : أهذا شارعٌ أم حائطٌ ؟
يقول : هل أوصاك أحدٌ بقتلي ؟
السيارة تندفع في شارعٍ بغداديّ ، بلا مارة ولا سيارات ...
شارعٍ بغداديّ في الفجر المبكر .
محمود درويش سيظل يسألني كلما التقيته ، متذكراً رعب تلك الليلة :
أشارعٌ أم حائطٌ ؟

لندن 29.08.2008

قمرٌ ببغداد الليمونيّ

لست أعرف سبباً لـ « نرفزة » كتابٍ عراقيين معيّنين ، من وصفٍ محمود درويش قمرَ بغداد
بالليموني .
قمرٌ ببغداد ليمونيّ ، حقاً ، لكن يبدو أن العراقيين لا ينظرون إلى السماء جيداً .

ألم يُقل الجواهريّ العظيم :
لم يعرفوا لونَ السماءِ لفرطِ ما انحنت الرقابُ
ولفرطِ ما ديسَتْ رؤوسُهُم كما ديسَ الترابُ
ما علينا ...

أكان ذلك في أواخر الثمانينيات؟
1989 مثلاً؟

آنذاك كنت مقيماً، على قلق، بباريس .
محمود درويش كان يسكن بالتروكاديرو، عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير
الفلسطينية .

كنا نلتقي .

أحياناً أدعوه إلى الخروج معي .

أقول له : دعني آخذك يا محمود إلى باريس الأخرى . إلى مقاهي الجزائريين ، وحانات المغاربة ،
ومطاعم الأفاقة . دعني آخذك إلى الضواحي ...

يقول لي : أنا أحسدك . أنت تتجول كما تشاء . تتعرف على باريس بطريقتك . أمّا أنا فسوف
يتبعني خمسة من الحماية !

*

في أحد الأيام تلقيتُ مكالمةً هاتفيةً من محمود .

قال : يجب أن أراك اليوم .

قلت : ليكن !

كان اللقاء في مطعم غير بعيدٍ عن مسكنه . طلبتُ بطاً ، فجاءني طبقٌ به لحمٌ بطّ شبه نيء ،
في رقائِق تكاد تشفّ !

*

من كان معنا؟

لا أتذكر جيداً ، لكنني أظن فواز طرابلسي الجليس الثالث .

*

سعدى يوسف : اختلاجات

قال محمود : عدتُ اليوم من النرويج . من قرية قصية بالنرويج . أريد رأيك في أمرٍ مُلحّ .
قلت : أمرك !

قال : يا سعدى ، اسمعني . . .

تلقيتُ دعوةً لحضور المريد ، ولجائزة تُسلّم إليّ إن وقّعتُ مسبقاً على قبولها . رفضتُ
الأمرين كليهما . ورغبةً مني
في تجنّب الأخذ والردّ ، سافرتُ إلى النرويج ، وأقمتُ في قريةٍ قصية . لكنني في منتصف
الليل تلقيتُ مكالمَةً
هاتفيةً من أبو عمّار ، نصّها : هل تريد أن تخرب بيتنا يا محمود ؟ يجب أن تذهب إلى
بغداد!

قلت : هكذا ؟

قال محمود : نعم . . .

الآن أريد رأيك !

إن قلتُ لي : لاتذهب ، فلن أذهب !

*

ما كنتُ بحاجةٍ إليّ أن أنعم النظر .

قلت له : أنت في هذا الموقف ، لست محمود درويش . أنت عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة
التحرير الفلسطينية . ممثلٌ رسميٌّ لشعبك وقضيته . أنت تضحي من أجل قضية شعبك . ليس
بمقدوري ، ولا من حقي أن أقول لك لاتذهب .

لكنني سأظل أتذكّر ، بكل اعتزاز ، أنك استشرتني ، مبدياً استعدادك للأخذ بما أرى !

قمر بغداد الليموني !

30.08.2008